(٤) أسس الحضارة الإسلامية

(أسس الحضارة الإسلامية)

د. صلاح:

كنا قد تناولنا المفهوم الخاص للحضارة الإسلامية الذي يجمع بين المفهوم المادي في العمارة للأرض وكل وسائل التطور والتكنولوجيا التي نشجع عليها ونسعى إليها، ثم الجانب الإنساني وتكريم الإنسان أيًا كان هذا الإنسان حتى لو كان غير مسلم، ثم الجانب الثالث وهو الجانب الإيماني وهو الوحدانية لله تبارك وتعالى وعبادة الله عزَّ وجلَّ.

لكن دائما يُقال أن الحضارة الإسلامية حضارة من الحضارات التي قامت على أكتاف الحضارات الأخرى والحضارة اليونانية التي سبقتها، مثل الحضارة الفرعونية والحضارة الفينيقية والحضارة الآشورية والحضارة الهندية، وأنها جمعت هذا النتاج كله ثم قدمت شيئا قليلًا لكن هي في أصولها كلها تُبنى على هذا الإطار، في إطار هذا المفهوم الهرمي يمكن أن يُقَوِّدْ هذه المسألة كلها، فما تحليلك لهذه المسألة؟

د. راغب:

هذه النعرة موجودة الآن بقوة لضعف الأمة الإسلامية في هذا الزمن، فنحن نعيش منذ آخر ١٠٠ سنة في وضع ليس هو الوضع الذي ينبغي أن نكون عليه، فقويت هذه النعرة عند الغرب تحديدًا ويقولون أن الحضارة في حقيقتها هي الحضارة الغربية وأن كل الحضارات استقت من الحضارة الغربية، فهم يُهمشون معظم الحضارات الأخرى.

حتى أن فوكوياما في كتابه نهاية التاريخ، وهو كتاب صدر منذ ١٥ سنة تقريبًا، ذكر في هذا الكتاب أن التاريخ انتهى بسيادة الحضارة الغربية، لأن هذه الحضارة المثالية يمكن أن تحكم العالم كله والعالم كله سيتجه الى قيم ومثل الحضارة الغربية، مهملًا بذلك كل اضافات واسهامات الحضارة الاسلامية القوية التي غيرت وجه التاريخ!

الذي يقول هذا الكلام ويقول أن الحضارة الاسلامية ما هي إلا حضارة انعكاسية للحضارة الغربية أيا كانت، هذا إما إنسان مُشحِف لم يدرس الأمر حق الدراسة وإما مُشحِف قرأ الحق وخالفه لأنه في نفسه شيء وإما أنه جاهل لم يقرأ عن التاريخ، لأن الذي يقرأ التاريخ يشهد أن هذه الامة أضافت للإنسانية ما لم تحققه امة غيرها مطلقا.

وذكر ذلك علماء غربيون منصفون كثر، مثل غوستاف لوبون وهو مفكر فرنسي كبير.

(وشهد شاهد من أهلها)

د. صلاح:

وهذا ما أشرت به في كتابك (وشهد شاهد من أهلها)، هذا الكتاب أنا اوصي اخواني واخواتي بقراءته لأنه كتاب أتى بشهادات علماء منصفين من كل ملل الأرض ومن كل الحضارات ومن كل انحاء الارض، والدكتور أراد أن يجمع هذا الجمع الذي لم أره في أي كتاب من قبل، وأن يضع أمام الامة الإسلامية، اولًا ثم أمام المنصفين من الغرب، أن هناك منصفين بالفعل انصفوا الحضارة الاسلامية.

د. راغب:

غوستاف لوبون يقول: (ليست هناك امة ليست هناك امة في التاريخ ولا في الواقع أنتجت مثل ما انتجت امة الاسلام)، لأن إنتاج هذه الامة الحضاري يزيد عن كل ما انتجته كل الأمم السابقة والمعاصرة، وكلام هذا الرجل كان من ١٥٠ سنة أي انه معاصر للعصر الحديث.

وبريفولت، وهو أستاذ في الحضارة والتاريخ في جامعة نيويورك، يقول: (ليس ثمة مظهر واحد من مظاهر الحضارة إلا وللمسلمين اسهام بارز مباشر فيه)

وأيضا غوستاف لوبون يقول: (ان اوروبا مدينة للمسلمين بحضارتها).

وويل ديورانت، المؤرخ الامريكي المشهور، يقول: (ان الاوربيين عندما أرادوا أن يرفعوا أكفان الجهل عن اكتافهم يمموا وجوههم شطر المسلمين الذين كانوا أئمة وحدهم في الاندلس والصقلية).

أي فلا يحق لأحد التكلم عن الرقي والحضارة إلا الأمة الاسلامية وفي كل وجوه التحضر، فهؤلاء لا يتكلمون فقط عن الكيمياء والفيزياء والاختراعات الاسلامية لكن يتكلمون عن تعامل الإنسان مع الإنسان، يتكلمون عن النظافة فالذي علم اوروبا النظافة والاستحمام هم المسلمون، فقد كان الاوربيون في العصور الوسطى يغتسلون مرتين في السنة وكان هذا عندهم شيئًا مقدسًا، فهم ما عرفوا الاغتسال إلا عندما دخل المسلمون في الأندلس.

فالذي يقول أن الامة الاسلامية استقت حضارتها من الغرب، فكيف ذلك وأين هؤلاء من هذه الشهادات التي ذكرناها لهؤلاء المنصفين من واقع الامر؟

د. صلاح:

قال روجر بيكون: (لولا العلم التجريدي الذي أسسه المسلمين لتأخرت حضارة اوروبا ٥٠٠ عام على الاقل). وكذلك الاستاذة العالمة زيغريد هونكه، في كتابها شمس الله، ترصد الانجازات الضخمة للحضارة الاسلامية.

د. راغب:

وهو كتاب رائع وأنصح الجميع بقراءته لزيغريد هونكه، فكتابها من الكتب القيمة وقد شرحت فيه بشكل علمي وتوثيقي وحيادي مطلق كل أوجه الحضارة الاسلامية والتقدم الذي وصلت إليه هذه الحضارة.

لكن هناك نقطة مهمة جدًا، وهي مهمة للعلماء الذين نسعى لتنشئتهم في هذا البرنامج وفي غيره، وهي أن المسلمين لم يكن عندهم حساسية في أن يأخذوا شيئًا من الآخرين.

وأنا اعتبر أن إنتاج العالم في العلوم الطبيعية والتجريبية، في الطب والهندسة والفلك والجغرافيا وغيرها، هذا ميراث أسميه ميراث الإنسانية، وكلنا يشترك في هذا الميراث، كلنا يأخذ منه وكلنا نُصدر منه.

فالمسلم الذي يضع لنفسه قيودًا فلا يأخذ طبًا ولا هندسة أو غيرهم من غير المسلم هذا إنسان لا يفهم، ويخلط الاعتزاز بدينه، والاعتزاز بعقيدته واخلاقه، فهذه العلوم الاخلاقية والدينية مجال آخر، فنحن عندنا ما يكفينا في ديننا،

وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ولو كانَ موسى حيًّا ما وسِعَه إلَّا اتِّباعي».

الراوي: جابر بن عبدالله

المحدث: ابن حجر العسقلاني

المصدر: تخريج مشكاة المصابيح

الصفحة أو الرقم: ١٣٦/١

خلاصة حكم المحدث: [حسن كما قال في المقدمة]

فأمور الشريعة وأمور العقيدة نمتلكها، عندنا الدين تم واكتمل والحمد لله، كما قال الله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي} [المائدة: ٣].

أما العلوم الطبيعية فهي ميراث الإنسانية، ليس لدينا مانع أن نأخذ منهم.

د. صلاح:

ما يحدث الآن هو العكس، فنأخذ منهم الأمور العقدية والأخلاقية، وندع التطور الحضاري المادي!

د. راغب:

وهذا ضعف من المسلمين وضعف في الرؤية.

وإذا وضعنا أيدينا على الرؤية الصحيحة للعالم الإسلامي سيكون هذا نجاحًا كبيرًا.

لأن العالم المسلم عالم معتز بدينه ، وواثق بربه عزَّوجلَّ وفخور بإسلامه ، ومعتمد اعتماد كلي على ربه تبارك وتعالى فيلجأ إليه ويعتمد عليه ويخاف منه ويحبه،

وفي نفس الوقت وهو بهذا الاعتزاز وبهذه الروح العالية، لا يكون لديه مانع أن يذهب إلى أمريكا مثلا ويأخذ منها علمًا في علوم الذرة ويذهب إلى ألمانيا فيأخذ علما من علوم الطب ويذهب إلى اليابان فيأخذ علما من علوم الكمبيوتر، فهذا ميراث الإنسانية.

والأعظم من هذا ثم لا يكون لديه مانع بعد أن يحصل هذه العلوم أن يعلمها لغيره من غير المسلمين، وقد برز في الحضارة الإسلامية الكثير والكثير من غير المسلمين من النصارى واليهود بل ومن غير الكتابيين.

وأنا أذكر أن صلاح الدين الأيوبي رحمه الله عندما دخل إلى دمشق، دخل معه ١٨ طبيبا، ٥ منهم مسلمون و٣ من النصارى وواحد يهودي والبقية من الصابئة وممن يعبدون الشمس والنجوم، ممن كانوا يعيشون في الأمة الإسلامية وفي الحضارة الإسلامية.

د. صلاح:

وفي الحضارة الإسلامية، كان أعظم مترجم كان حنين بن إسحاق وكان يراجع الترجمات الدقيقة إلى أن اعتمادها.

د. راغب:

وكان يعطيه المأمون وزن الكتاب الذي يترجمه ذهبا،

والخليفة المسلم الذي كان فاهما لقيمة العلم في الأمة الإسلامية كان يعطي وزن الكتاب ذهبا لمن ترجمه من الحضارة اليونانية أو الفارسية.

أما أوربا لم تعرف علماءها إلا عن طريق المسلمين، أوربا لم تعرف أفلاطون وأرخميدس وإقليدس وغيرهم من العلماء اليونانيون إلا عن طريق الترجمة الإسلامية، ولم نأخذ هذه الترجمة ووقفنا عند هذا الحد، بل نحن أخذنا هذه العلوم ثم نقدناها، فأخذ العلماء المسلمون يحللون ويجربون واكتشفنا الصحيح منها من الخاطئ، وأثبتنا الصحيح وتركنا الخطأ ثم بعدها طورنا هذه الحضارات، ثم بعد ذلك ابتكرنا علوما جديدة، ولعلنا أن شاء الله نتعرف على علوم كثيرة أضافها المسلمون إلى مسيرة الانسانية، في علم الكيمياء وعلم البصريات وعلم الأدوية وعلم الجبر، فهذه العلوم ابتكار

اسلامي، مثل غياث الدين الذي ابتكر الكسر العشري والزهراوي اخترع الحقنة فكيف كانت ستكون حياة الانسانية بلا حقن العضل والوريد والتخدير، فهذه كلها اضافات إسلامية مبتكرة منذ بدايتها.

د. صلاح:

المسلمين تعاملوا مع المخزون العلمي الانساني بانفتاح غير عادي، وليس كما فعل المغول حين ألقوا بأطنان من الكتب في نهري دجلة والفرات، بل بالعكس أخذوا كل ما عندهم، حتى أن الامام الشافعي كان يقول: (يجب أن يقرأ كل يا اخذ عن الغرب من غير المسلمين، حتى كتب السحر يقول يقرأها الخاصة ثم تلقى هذه الكتب ثم يؤخذ بغلاف الكتاب فيغلف به كتاب آخر، لا يهدر شيء في الاسلام).

فهم لم يخاصموا أية حضارة على الاطلاق، ثم قاموا بعملية تصحيح وفقا للمعايير الجودة، ثم بعد ذلك التطوير والابتكار كانوا فيه بارعين براعة غير عادية .

فالمنهجية التي كانت تحكم علماء المسلمين ليست عقلية الانغلاق وليست عقلية الأخذ دون تصويب وتصحيح وليست عقلية الوقوف عند هذا الحد وليس كما يقال (ليس في الإمكان أبدع مما كان)، بالعكس، فيأخذونه من أجل تطويره.

د. راغب:

والروعة بعد كل هذا هو تصديره لغيرنا، فالحضارة الاسلامية هي أول من عرف نظام البعثات العلمية والمنح الدراسية للآخرين من دول أخرى مسلمين كانوا أو لا،

يأتون ليعيشوا في بلاد المسلمين ليتعلموا، فأذكر أن أول مدينة جامعية كانت موجودة في بغداد، مدينة كاملة يصرف عليهم بالطعام والشراب والدواء والكساء فتجدهم يأتون من أطراف الدنيا ليتعلموا في بغداد،

لا ليتعلموا فقط فقه وعقيدة وأخلاق، بل ليتعلموا فيزياء وكيمياء وطب وهندسة في داخل الجامعات الاسلامية، كان شيء في منتهى الرقي،

وكان بعض باباوات روما يتعلمون في مساجد المسلمين في قرطبة وغيرها، فنحن عندنا في الحضارة الاسلامية علماء مسلمين قادوا مسيرة الانسانية عدة قرون متتالية، ولن نسمح لأي متطاول على الحضارة الاسلامية أن يقول أن الحضارة الاسلامية ماهي إلا انعكاس للحضارات الاخرى.

د. صلاح:

عندما قال بابا الفاتيكان أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأتي إلا بكل ما هو شرير وأن المسلمين لم يضيفوا للعالم إلا القتل والدماء، وقتها كان في يدي كتاب زيغريد هونكه (الله ليس كذلك)، ووجدت أنها تقول (أنا أعاني من جهل مطبق عند الغرب وخاصة الباباوات ومن التدليس وقالت أن الحضارة الاسلامية بقيمها الانسانية والاخلاقية النادرة استطاعت أن تستهوي الشباب في اوروبا كلها لدرجة انهم هاموا باللغة العربية وفنونها وآدابها وان اول ترجمة للإنجيل باللغة العربية، لان ابناء اوروبا لم يكونوا يحبون أن يتكلموا باللغات المحلية وانما يتكلمون باللغة العربية ، قالت أن هذا لم يأت بالقهر وإنما هو اعجاب بالنموذج الحضاري الاسلامي المتميز فالحضارة الاسلامية فعلا بدأت تجذبهم.

السؤال الآن يا دكتور: شبابنا الذي يبدأ حياته الآن في اختيار منهجه العلمي، كيف نقول له أن يبدأ بالحلم وألا يكن له خصومة مع الفكر الغربي، فيفهم العلم الذي يريد ويتعلمه وفي نفس الوقت يجب أن يعرف أنه سيكون به نسبة من الخلل يجب أن يصححه ثم يطوره ثم يصدره؟

د. راغب:

بداية أريد أن أطمئن الجميع أن الله تعالى يقول: {وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} [آل عمران: ١٤٠] ، فهي دورات، ونحن الآن في دورة نرى فيها شيئا من التبعية للغير وشيئا من الاعتماد على منتجات وابتكارات واختراعات الآخرين وهذا شيء غير مقبول، وإن شاء الله في الحلقات القادمة نعرض بعض النماذج والصور الغير مقبولة في الامة الاسلامية في الاعتماد على الغير، لكن هذه مرحلة، وهي زائلة أن شاء الله وستكون العاقبة للمتقين.

وسيأتي في يوم من الأيام جيل يستطيع أن يغير هذه الأوضاع، وكل ما نريده في هذا البرنامج هو أن نكون نحن هذا الجيل ، فلا ننتظر اناسا أخر ليصلحوا الاوضاع ، ولا ننتظر جيلا يأتي بعد مئة سنة يكون له دور، ولا ننتظر تغيير من الخارج والغرب لأنه بالتأكيد سيكون تغيير الأسوأ.

كنت قد قرأت منذ مدة أن أمريكا تنفق ٥ مليار لتغيير المناهج التربوية في أفغانستان!، ولك أن تتخيل كيف ستغير هذه المناهج، فهذا الانفاق والجهد مبذول ليغيروا المعايير الخاصة بالأمة الإسلامية.

ودورنا أن نعرف حجمنا وأننا لسنا قلائل في هذا الكون ولسنا نعيش على هامش التاريخ، وإنما هي دورة من دورات التاريخ ، فوضعنا الآن ضعيف لكن أن شاء الله سيصبح قويا وكبيرا وعظيما وسنعود من جديد لقيادة العالم.

فهذه هي القضية التي يجب ألا ينشغل عنها أحد.

يجب أن يكون لك دور في هذه القضية، لا تكن من المنتظرين أن يأتي صلاح الدين أو نور الدين أو ابن حنبل أو البخاري من بعيد، لماذا لا يخرج من بيتك أنت؟، لماذا لا يكون أنت هو؟، هناك من الناس من بدأ حياته العلمية في سن متقدم جدا ووصلت إلى القمم.

لدينا يوسف بن تشفين الذي التزم بالإسلام وعمره ٤٦ سنة، فهو وقبيلته غُيِّبَ عنهم الاسلام لقرون كثيرة في موريتانيا والسنغال في اعلاق الصحراء، ثم أرسل الله لهم عالِما يعلمهم عبد الله بن ياسين رحمه الله، وهذا هو دور العالِم الذي نتكلم عنه عالِم فَطَّن الناس على ما ينبغي أن يكونوا عليه، فهو علمهم ومات رحمه الله ولم يرَ ثمرة الانتاج، فأُنشِأت دولة المرابطين وهي دولة ضخمة وعظيمة ونشرت الاسلام والعلم واعزت الاسلام في الاندلس وانتصرت على الصليبيين.

يوسف بن تشفين بلغ من العمر ١٠٠ سنة وهو يحكم أمة الإسلام أي عاش ٥٤ سنة في الاسلام وكان عالِما ومجاهدا وكان ورعا تقيا وكان كل ما يمكن أن تقوله في حق الأبطال العلماء الأبرار المجاهدين.

أقول لإخوتنا ليس دورك فقط الذي مع أهلك وأولادك، بل دورك يكون مع نفسك أولا، لماذا يكون همك أن يحفظ اولادك القرآن ولا يكون همك أن تحفظه أنت؟، لماذا يكون همك أن تُعلِم أولادك الفقه ولا تجلس أنت مع من يُعلِمهُم لتتعلم أنت أيضا؟! وكما الله تعالى: {وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ} [المطففين: ٢٦]

د. صلاح:

ونحن لدينا الدكتور فريد عبد الخالق أخذ الدكتوراه وعمره ٩٤ سنة ودخل في الموسوعة العالمية كأكبر رجل يفعل ذلك، وهذا شيء ممتاز أن يضرب هذا الرقم القياسي ليكون نموذجا.

وعندما كنت أدرس في الماجيستير كانت معنا أخت كريمة عمرها ٦٥ سنة قالت لي أنا زَوجتَ أولادي جميعهم وأنا الآن أريد أن ألقى الله تعالى على علم لا ألقاه على جهل، وقالت بما أن أعمار أمتنا بين الستين والسبعين فأنا آمل أن آخذ الدكتوراه قبل ال٧٠، وقد أخذتها.

د. راغب:

وهذا مثال غير نادر في تاريخنا، فهذا المثال ذكرني بالبيروني رحمه الله ، عندما كان على فراش موته وكان أحد القضاة يزوره وكان هذا القاضي استاذه في الفقه، والبيروني كان من فقهاء المسلمين الكبار مع علمه بالفيزياء والطب وغيره،

فسأله البيروني: ماذا كنت تقول في مسألة الجدات في الميراث؟، وهذه كانت مسألة معقدة لم يتذكر حلها، فقال له: أو أنت في هذه الحالة ؟، قال: يا أخي أموت مُخَلِيًا الدنيا وأنا عالم بها خيرا لي من أن أموت وأنا جاهل بها.

فهو يعلم أن العلم له أجر، وكما قال رسول الله صل الله عليه وسلم: «أن قامَتِ الساعةُ وفي يدِ أحدِكمْ فَسِيلةٌ ، فإنِ استطاعَ أن لا تقومَ حتى يَغرِسَها فلْيغرِسْهَا».

الراوي: أنس بن مالك

المحدث: الألباني

المصدر: صحيح الجامع

الصفحة أو الرقم: ١٤٢٤

خلاصة حكم المحدث: صحيح

ومع أن غرسها في هذا الوت لن يستفيد منه البشر إلا أن فيه ثواب.

كذلك ما فعله البيروني وهو في فراش الموت، هو يريد أن يتعلم وبالرغم من أن هذا العلم لن يأخذه منك أحد لأنه سيموت، إلا أنه سيفوز بأجر هذا العلم، فيصبح ليس عنده جهل بهذه النقطة التي سأل عنها، وهذا الحرص هو الذي يمكن أن يُقِيم الأمة وأمثال هؤلاء تقوم على أكتافهم الأمم.

د. صلاح:

الجانب الإيماني في الحضارة الاسلامية هو الذي يجعل المرء يبعث على ما مات عليه، فهو يفعل هذا وهو يريد أن يلقى الله وهو على علم ولأن الله يقول: { يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} [المجادلة: ١١]

أنا أحزن عندما أرى المتقاعدين جالسين في بيوتهم بلا عمل مع كل الخبرة التي يمتلكونها، فبعد أن كانوا خبراء في تخصص عندما يتقاعد يَركن إلى الراحة.

أريدهم أن يتحدوا هذا الامر، فإذا تقاعد أحدهم وهو لا يعرف الكمبيوتر يذهب ليتعلم الكمبيوتر، أو لا يعرف لغات يذهب ليتعلم اللغات.

عندما كنت أتعلم اللغة الإنجليزية كان معي امرأة من اليابان وأخرى من هونغ كونغ وكان سنهم يقترب من سبعين سنة، جاءوا يزورون أولادهم فقالوا نحن لدينا وقت فراغ فلم لا نذهب ونتعلم اللغة الانجليزية!

فهذا من علامات الإنسان الحضاري.

ونجد في صحيح البخاري في كتاب العلم، باب (تعلُم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم العلم في كِبَر سنهم)، وباب آخر (لا يتعلم العلم مستح ولا مستكبر).

اخواننا علهم أن يكونوا مشروع علمي، فالذي خرج للتقاعد ومن يعاني من البطالة ينبغي له طلب العلم ويخرج ليتعلم القرآن أو السيرة أو الحضارة أو اللغات أو الكمبيوتر أو الكيمياء.

د. راغب:

علهم أن يتعلموا القرآن، فالكثير ممن كانوا في فترة الستينات فقدوا الاتصال بالقرآن الكريم وليس عندهم القدرة على قراءة القرآن قراءة صحيحة بأحكامه وتجويده وترتيله وفق ما قرأه النبي صلى الله عليه وسلم.

وهناك أيضا دور آخر مهم جدًا ألا وهو دور توريث الخبرة، فإن كان هناك رجل كبير في السن عاش ٤٠ سنة في مجال معين من الأعمال، فهناك كثير من الطلبة يحتاجونه ويحتاجون خبرته وتاريخه وما الذي كنا عليه قبل ٥٠ سنة.

فنحن عندما نقرأ التاريخ نضيف أعمارًا إلى أعمارنا، هناك ثروات موجودة عندنا قد لا نستفيد منها.

د. صلاح:

هذا الطرح، الذي أشعر أنه فيض من عند الله تبارك وتعالى، يُلقي علينا المسؤولية جميعا، فعلينا كلنا أن نتعلم وأن نخوض هذا المشوار بكل قوة، كما قال الله تعالى: {يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ} [مريم:١٢]، ولا بد أن نخوض هذا المشوار مهما كان عمر الانسان،

نحن نستطيع أن نصنع الحضارة من جديد،

ولا يجب أن يترك أحد الكتاب أبدا، {إقرأ} هذه أول آية نزلت في كتاب الله تبارك وتعالى، بهذا نبدأ مشوار صناعة الحضارة ، ولا نلعن الظلام ونحن جزء منه،

أدعو الجميع من كبار وشباب ألا نشعر أبدًا بلحظة فراغ وأن نأخذ طريق العلم لصناعة الحضارة الاسلامية كما صنعها أسلافنا وأجدادنا وعلماؤنا.